الرفق بالانسان

او اساطيل حماده

قال الشاعر كولي اعظم شعراء الانجليز في القرن السابع عشر ان الانسان يقرب من جميع انواع الحيوانات فهو كلب مداهن واسد زائر وثعلب خادع وذئب خاطف وسقر حائم

وقال شكسبير الشاعر المشهور ان الانسان سامي العقل واسع الملكات عجيب الافعال كالملائكة في فعلهِ والآلهة في فهمهِ

وقال لامرتين من كتّاب فرنسا وساستها في القرن التاسع عشر ان الانسان إله ساقط لا نهاية لرغائبهِ ولا حد لامانيهِ

هذهِ الاقوال جميعها مع ما فيها من التباين حقائق تشير الى ما في افراد الناس من الصفات والطبائع والافعال والاميال مما يصلهُ تارة بالحيوانات على اشكالها ويرفعهُ اخرى الى صف الملائكة والآلهة . والحقيقة التي ريب فيها ان من الناس من يقصر عيشهُ على نفسهِ فلا يرى لهُ غاية في وجودهِ سوى خدمة ذاتهِ ليس الاَّ فيلجأُ الى وسائل غرضهِ بما تصل اليهِ يدهُ وما يدفعهُ اليها خلقهُ وطبيعتهُ فيتشكل بالاشكال التي اشار اليها الشاعر كولي وهؤلاء هم بلا ريب احطُّ نوعهم عقلاً وادراكاً واخلاقاً واقصر بصراً لا يرون الاَّ قيد شبر من ارجلهم او ادنى

ومن الناس من ينظرون الى أُفق سمائهم الحاضرة والمستقبلة بعين بصيرة وقلب شريف يرون بهما ان الحب الذاتي البحت هو دون ما ترمي اليهِ النفوس البصيرة العالية وان علاقة الانسان بنفسهِ وذويهِ حاضراً ومستقبلاً معقودة بعلاقة مواطنيهِ ثم بعلاقة اخوتهِ في الانسانية . وهذا الاعتقاد يدعوهم الى الاهتمام بشأن ذويهم ومواطنيهم ثم اخوتهم في الانسانية وهؤلاء يختلفون بعضهم عن بعض طبقة فوق طبقة ودرجة فوق درجة في المبادىء والوسائل ونجاحهم في دائرة مقاصدهم يتوقف على قوة تلك الوسائل ونظامها وقد تقف الاحوال في وجهها ولكن الى امد قصير حتى يقضي على الاحوال الصبر والثبات

وكلما عظمت نفوس هؤلاء ورقت اتسعت دائرة مبادئها فتنتقل من قصر الاهتمام على الاهل وذوي القربى الى الاهتمام بالجار ثم باهل المدينة او القرية ثم بالوطن . ومن هذه الى الاهتمام باجل الغايات واسماها الا وهو الاهتمام بالانسانية قاطبةً . ومن هؤلاء الآخرين اعظم

المصلحين العظام في العالم من فلاسفة وشارعي اديان حيث يرمي غرضهم الى رفع شأن الانسان في افعاله وآدابه وافكاره رفقاً بالانسانية ورغبة في ايصالها الى اسمى درجات الكمال والسعادة الحقيقية — والى هذه الطبقة الثانية اشار شكسبير ولامرتين في قولهما السالف الذكر

وكل فرد من هذه الطبقة الثانية هو قوة ادبية عظمى في بلده وقطره وهذه القوة الادبية هي مصدر قوة مادية فعالة ذات تأثير عظيم يقلّ ويعظم بحسب قوة مصدرها وكلما كثرت هذه القوات الادبية كثرت معها القوات المادية واذا بدت ظواهر هذه القوات الادبية في بلدة بدت بلا ريب بشائر نهضة قومها بحيث لا يعوزها حينئذٍ لبلوغ غايتها القصوى سوى جمع هذه القوات بعضها الى بعض لتتكون من مجموعها قوة عظمى تأتي بنتائج هي اضعاف ما يأتيه افرادها جمعاء كما تأتي الاساطيل المجتمعة اضعاف ما يأتيه آحادها

ولقد تنبه المصريون منذ عهد قريب فادركوا ان لا وسيلة لمباراة الشعوب الاخرى الراقية في ميدان الحياة ودواعيها الاّ تهذيب عقول الامة واطلاقها فقام افراد من هنا ومن هناك ينشؤون المدارس والكتاتيب في جهات متفرقة وعلى نظامات متنوعة يصح لي ان القّبها كلاً منها بمدرعة او مدفعية او بارجة من وجهة الوقاية في نتائج الضعف لا من وجهة وسائل الاعتداء على الغير وذلك لان هذه المدارس على اشكالها هي القوات الفعالة لرفع شأن الامم واذا جمعت هذه المدرعات والمدفعيات والبوارج يوماً ما تحت قيادة واحدة ونظام واحد كان منها اسطول قويّ يفعل اضعاف ما يفعلهُ آحادها ولا بد ان يأتي ذلك اليوم قريباً باذن الله حيث يشعر المصريون بوجوب جمع قواتها الادبية وتوحيد نظامها فتخطو حينئذٍ مصر الخطوة الصادقة في سبيل ارتقائها وشدّ ساعدها

حداني الى هذه المقالة ما رأيتهُ في الاسكندرية حين قصدتها منذ ايام فقد ساقني الحظ الى ميدان الجمرك حيث كانت حاجتي فرأيت بناء صغيرًا جميلاً استوقف نظري هو بناء جمعية الشيالين ثم دار الحديث مع رفيق لي عمَّا يأتيه حضرة خليل باشا حماده رئيس الجمعية من الاهتمام بشؤون الشيالين فتشوقت الى زيارة مدرستها وطلبت ذلك من حضرة الرئيس فاستدعى ناظرها وهو حضرة الفاضل الشيخ محمد محمود وكلفهُ مرافقتي فادخلني اولاً بناء واسعاً على شكل "جمالون" يقرب طولهُ من الخمسين متراً او اكثر وفي جانبيهِ غرف رأيت في كل منها صبياناً يشتغلون هؤلاء بصناعة التجارة واولئك بصناعة الاحذية وآخرون يتعلم الموسيقى على ضروبها فطربت من نشاط الاساتذة والتلامذة كبارًا وصغارًا وخيل لي وانا اشاهد الصبية الصغار عابسين ينفخون في الآلات الموسيقية ذات المزمار ويضربون بارجلهم مع التأثيرات

الموسيقية انهم واقفون ينهضون همم اخوانهم المصريين الى النشاط والعمل قبل ضياع الفرص الثمينة فاغرورقت عيناي بالدموع وحامت بي نفسي على الاماني البعيدة الشاسعة الواسعة فخرجت وانا اناجي نفسي قائلاً هذا اسطول من اساطيل امتي وبلدي نعم هذا اسطول انشأته همة الرجل الفاضل خليل باشا حماده القوة الادبية الفعالة

ثم اخذني حضرة الاستاذ ناظر المدرسة الى بناء آخر عظيم في طريقنا واذا هو بناء جميل يحتوي على المساكن التي تبنيها الجمعية للشيالين كل مسكن منها يتكون من ثلاث غرف صغيرة فقابلت بين هذا البناء الجميل النظيف وبين العشش القذرة التي يسكنها عادة الشيالون فقلت ان لنا الآن من ارتق من الرفق بالحيوان الى الرفق بالانسان — ثم اخذني الى دار مدرسة التعليم فوجدتها قسمين منفصلين قسماً لتعليم البنات وقسماً للاولاد ومما ادهشني طريقة التعليم فيها وسهولتها حتى اعتقدت من نجابة التلامذة والتلميذات ان هذه المدرسة الحديثة الصغيرة جمعت نخبة المدرسين فقد شاهدت بنات لا يتجاوز سنهنّ ثماني سنوات يكتبن "باملاء المدرس" كتابة جميلة بلا غلط من قطع نثرية وشعرية ثم يشرحن معناها شرحاً بنيّاً لاول وهلة عن الطريقة المثلى التي يتبعها المدرسون لسهولة التعليم . وقد علمت من حضرة الناظر ان نظام التدريس في مدرسة الاولاد يقضي عليهم ان يصرفوا يوماً في العلوم وآخر في مدرسة الصناعة وهكذا فانشرح صدري من هذه الطريقة الصائبة التي كانت صورتها تحوم دائماً في مخيلتي وأرى وجوب اتباعها كلما رأيت شباناً كثيرين من الذين انقرا دروسهم العلمية يقضون اوقاتهم الثمينة في التماس خدمة صغيرة من خدم الحكومة للقيام بلوازم العيش الضرورية وهم يئنون ويتألمون ولا يجدون في نظرهم وسيلة للعيش الاّ تلك الخدمة الحقيرة الشاردة عن ابصارهم وامانيهم

ثم رأيت في فسحة المدرسة صورة رجل وجيه متحلٍ بلباس الرتبة الاولى وعلى صدره النياشين الكثيرة فسألت عنهُ فقيل لي هي صورة المرحوم احمد باشا المنشاوي المحسن الشهير الذي تبرع لهذه المدرسة باربع مئة جنيه سنوياً فعجبت من هذا العالم الغريب الشكل والاطوار في نظامه وبدعه ومن ظهور الباطل على الحق حين رأيت تلك النياشين الباطلة تملأ صدر الرجل وكثير منها خالٍ من المعنى في الحقيقة وليس بينها شيء يشير الى اعظم واجل عمل قام به الرجل في حياته وهو الاحسان العظيم للعلم والادب والانسانية وقلت في نفسي متى تفيق الامة المصرية من نومها وتخرج من الباطل للحق الصحيح فتحلي الاحسان والفضل بوسامات خصوصية تشير الى الاعمال الجليلة التي يقوم بها اهل الفضل ويبقى المجال واسعاً للوسامات الاخرى التي لا معنى لها . وخاطبت في نفسي صورة ذلك المحسن العظيم قائلاً ان وسام احسانك

الخفي عن العيون المحفوظ في قلوب امتك هو اجل وابقى من هذه الوسامات الكثيرة فكفاك به فخرًا وشرفًا وجلالاً . وقد مات الرجل الآن بعد ان ختم حياتهُ بافضل ختام واجلّ ختام وذهبت تلك النياشين بجمالها عن الابصار ولم يبق منها اثر ولكن هناك وهنا الشيء الباقي المخلد لهُ في القلوب وفي بطن التاريخ هو ذكر تلك الاحسانات الكثيرة العميمة التي امتاز بها عن جميع المصريين وفيها الآن معنى تغلُّب الحق على الباطل وبقاء الصحيح وزوال الفاسد

ثم انتقلت من بناء المدرسة الى بناء آخر اجمل مما قبلهُ وهو يحتوي اولاً على مسجد جميل مفروش بالسجاجيد العجمية الفاخرة ليؤدي الشيالون فيهِ فروض العبادة وثانياً اجزخانة لهم وثالثاً على محل معد لعيادة المرضى منهم ورابعاً حمام جميل لهم ايضاً وخامساً قهوة نظيفة لاستراحتهم فيها من عناء العمل وسادساً بناء واسع فيهِ سويقة تجمع لوازمهم فكادت نفسي تطير فرحاً بهذه الاعمال الجليلة الفاضلة التي قامت بها همة رجل عظيم من ذوي النفوس العالية محبي امتهم بل محبي الانسانية — رجل فاضل من رجال الاصلاح في العالم هو قوة ادبية عظمى في وطنهِ بمثلها لا بسواها يشتد ساعد الوطن — هو خليل باشا حماده مؤسس ذلك الاسطول الذي سميتهُ اسطول خليل باشا حماده — هو ذاك الرجل الذي ينطبق عليهِ قول لافاتر (من ادباء القرن الثامن عشر في سويسرا) "ان الرجل العظيم هو صاحب الصفات العظيمة الذي بعد ان يقوم باعمال لم يقم بها واحد من عشرة آلاف ينزوي مختفياً عن اعين المفاخرة والمباهاة لا يدري بهِ احد"

فيا ايها المصريون الى مثل هذا العمل الخطير — الى مثل هذه القوة الحقيقية الفعالة لرفع كلمتكم — الى مثل هذه الاساطيل لا الى سواها يجب ان تنهال اموالكم لتشييدها وتعزيزها لتقوم بها قوتكم الحقيقية على الاساس المتين المكين لا الى القوى الوهمية التي لا رسم لها الاَّ في الخيال — نعم بمثل هذه الاساطيل لا بغيرها يقوم الوطن والامة والمملكة القريبة والبعيدة وبمثل هؤلاء الرجال الشريفي المقاصد والغايات تنهض الامم من خمولها وضعفها الى النشاط والقوة — وعلى مثل المحسن العظيم المرحوم احمد منشاوي باشا يجب ان تبكي العيون ولمثلهِ يجب ان تقام الذكرى ليقوم الحق ويزهق الباطل

اخنوخ فانوس